وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ميسان – كلية التربية الاساسية

قسم التاريخ

السيدة رصد ودورها السياسي في عهد الخليفتين الظاهر وابنه المستنصر بالله

٤١١– ٤٨٧ هـ/ ١٠٢٠ م –١٠٣٦ م

بحث تقدمت به الطالبة

زينب نعمة صادق

كجزء من متطلبات نيل شهادة البكالوريوس في التاريخ

بأشراف

م.د. فاطمة عبد سعيد

١٤٤٧هـ _ ٢٠٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

الإهداء

إلى: . . .

- فخري وسندي . . . والدي العزيز

- ينبوع المحبة والطيبة ومبعث همتي . . والدتي العزيزة

- ظلال الشجر العالي . . ومن اشَّد بهم أزري

أخواني وأخواتي محبةً واعتزازاً

أهدي جهدي هذا المتواضع

الباحثة

الشكر والتقدير

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين، سيدنا محمد ، وعلى آله الطاهرين، مصابيح الهدى ومنارات العلم، الذين نهلنا من سيرتهم أسمى دروس الحكمة والعلم، فكانوا قدوة في المعرفة والتقوى . وما كان لهذا الجهد أن يرى النور لولا توفيق الله وعونه، فله الحمد أولًا وآخرًا ، ظاهرًا وباطنًا ، وأسأله أن يجعله علمًا نافعًا وأجرًا متقبلًا .

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة **فاطمة عبد سعيد** ، التي كانت لي خير قدوة ونموذجًا يُحتذى به في العلم والأخلاق . إذ كانت مصدر إلهام ودعماً معنوياً لا ينضب منذ دراستي ولولا توجيهاتها السديدة ورعايتها المستمرة لما تمكنت من إنجاز هذا البحث .

كما لا يفوتني أن أتقدّم بجزيل الشكر إلى أساتذتي الكرام الذين أسهموا في تدريسي طوال مدة الدراسة، .

وأتوجّه بالشكر إلى الدكتور **أرشد عبود خليفة** لما قدّمه من مساعدة وتوجيه خلال إعداد هذا البحث، فله مني خالص الشكر والتقدير .

الباحثة

فهرست المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية	أ
الاهداء	ب
الشكر والتقدير	ج
فهرست المحتويات	د
المقدمة	١ ـ ٣
المبحث الاول : حياة السيدة رصد ونشأتها	٥ ـ ٧
اولاً: نشأتها	٥
ثانياً: صفات السيدة رصد	٦ ـ ٧
المبحث الثاني : الدور السياسي للسيدة رصد	٩ ـ ١٧
المبحث الثالث : الدور الإداري للسيدة رصد	١٩ ـ ٢٢
الخاتمة	٢٣ ـ ٢٥
النتائج	
قائمة المصادر	٢٧ ـ ٢٩

المقدمة

تُعَدُّ دراسة التاريخ السياسي للدولة الفاطمية من الموضوعات التي حظيت باهتمام واسع في الدراسات التاريخية الإسلامية، لما تمثّله هذه الدولة من تجربة فريدة في الحكم قامت على أسس اسلامية، انعكست بشكل واضح على بنيتها السياسية والإدارية. فقد نشأت الدولة الفاطمية نتيجة نشاط دعوي منظم اعتمد السرية والتدرج في نشر المذهب الإسماعيلي، حتى تمكن من إقامة كيان سياسي قوي في بلاد المغرب الإسلامي، قبل أن ينتقل إلى مصر ويؤسس هناك مركزاً جديداً للخلافة، أصبح لاحقاً أحد أهم مراكز الثقل في العالم الإسلامي.

شهدت الدولة الفاطمية بمصر تطوراً سياسياً برز فيه دور نساء القصر في صناعة القرار، وتعد **السيدة رصد** نموذجاً استثنائياً أثّر في تعيين الوزراء وإدارة شؤون الدولة خلال عهد الخليفة **الظاهر الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ)**. تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على دور المرأة السياسي في الدول ذات الطابع المذهبي، ودراسة مرحلة انتقالية مهدت لتحولات كبرى في بنية الحكم.

اعتمدت الدراسة تقسيماً يرتكز على ثلاثة مباحث: تناول **الأول** نشأة السيدة رصد ووصايتها، وناقش **الثاني** علاقتها بالقوى الداخلية كالأوزار والقضاة، بينما ركز **الثالث** على هيمنتها الإدارية والمالية. واستند البحث إلى مصادر أصيلة كـ "**اتعاظ الحنفاء**" للمقريزي، و "مروج الذهب" للمسعودي، و"السيرة المؤيدية"، بهدف تحليل أبعاد نفوذها وربطه بالأزمات اللاحقة التي واجهت الخلافة، للوصول إلى فهم أعمق لطبيعة السلطة الفاطمية.

المبحث الأول

حياة السيدة رصد ونشأتها

اولاً: نشأتها

تُعدّ السيدة رصد من الشخصيات النسائية البارزة في العصر الفاطمي، رغم أن أغلب المصادر التاريخية لم تتوسع في تقديم تفاصيل عن حياتها، وذلك لأن كثيرًا من المؤرخين في تلك الحقبة كانوا يتجنبون ذكر أسماء السيدات من القصور الفاطمية بشكل مباشر، ويكتفون بالإشارة إليهن بعبارات مثل "الجهة" أو "الدار." ومع ذلك، فإن بعض المؤرخين ذكروا اسمها صراحة ووصفوها بوصف دقيق يدل على أصلها وخلفيتها. هي السيدة والدة الخليفة، وزوجة الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله بن الخليفة الحاكم بأمر الله بن الخليفة العزيز بالله أبي المنصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن الخليفة المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن الخليفة القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن الخليفة عبد الله المهدي. التزمت أكثر المصادر التاريخية الصمت حول تفاصيل عن حياة تلك السيدة ولاسيما اسمها، شأنها في ذلك شأن أغلب زوجات الخلفاء الفاطميين انطلاقاً من مبدأ الستر وفق العقيدة الفاطمي[١].

كانت السيدة رصد أمة سوداء من بلاد النوبة[٢]، وهذا أمر كان شائعًا في العصر الفاطمي بسبب اتفاقية البقط[٣] التي سمحت بتوافد عدد كبير من النساء النوبيات إلى مصر. وقداشتهرت النساء النوبيات في ذلك الوقت بالحسن والجمال، لذلك كثر وجودهن في قصور الفاطميين، ولا سيما في المرحلة المبكرة من الدولة.[٤]

---

[١] ابن تغري بردي، أبو المحاسن الأتابكي (٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت،ص٣٧٣.

[٢] بلاد النوبة : بلاد واسعة عريضة جنوبي مصر وأهلها نصارى اهل شدة في العيش يجلبون الى مصر فيباعون بها . ينظر : ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان ، بيروت ،ج١، ص.١٩١

[٣] اتفاقية القبط : هي اتفاقية الصلح التي عقدت بين ملك النوبة قليدروث وبين والي مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح سنة(٣١/٦٥٢) على عهد الخليفة الراشدي عثمان ابن عفان ، والتي نصت على حرية مرور التجار بين مصر وبلاد النوبة ، وكان على النوبيين تسليم ٣٦٥ من النوبيين على ان يهدي المسلمون اليهم ١٣٠٠ أردب من الحنطة والشعير وتعد أطول معاهدة نظمت العلاقات السياسية والتجارية بين المسلمين والنوبيين فقد دامت ستة قرون. ينظر: البلاذري ،احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان ،تحقيق ، رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٩١،ص٢٣٨.

[٤] المقريزي، تقي الدين احمد ابن علي (ت٨٤٥ هـ)، أتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة،١٩٩٦،ص٤١٢.

كانت رصد في الأصل جارية لأبي سعد التستري [١]، وهو واحد من أهم الشخصيات التي كان الخليفة الظاهر يعتمد عليها في الاشراف على بيت المال. وقد قرّب الظاهر التستري إليه، فباعه الجارية رصد، التي سرعان ما حظيت بمكانة مميزة عنده، فصارت زوجته، ثم أنجبت له ابنه الخليفة المستنصر بالله. ومن هنا بدأت أهميتها السياسية تظهر شيئًا فشيئًا[٢] .

بعد وفاة زوجها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧ هـ، تولّى ابنها المستنصر بالله الخلافة وهو ما يزال صغيرًا، الأمر الذي جعل السيدة رصد تتولى الوصاية عليه، فصارت مسؤولة عن شؤون الحكم في سنواته الأولى. ومع مرور الوقت، لم يتراجع دورها السياسي، بل على العكس، أصبح نفوذها أقوى بكثير حتى بعد أن بلغ ابنها سن الرشد. وتذكر بعض الروايات أن السيدة رصد لم تكتفِ بالوصاية فقط، بل سيطرت على مقاليد الحكم كاملة تقريبًا، وساعدها في ذلك نفوذ رئيس ديوانها أبي سعد التستري. وقد أدى هذا النفوذ الكبير إلى تضييق دور الخليفة نفسه في إدارة الدولة، في ظل ضعف شخصيته السياسية [٣]

ثانياً: صفات السيدة رصد وشخصيتها

لقد بدت شخصية والدة المستنصر واضحة في قوتها ومكانتها، وسيطرتها على الأوضاع السائدة في القصر الفاطمي، فبعد وفاة زوجها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦) م وتولى ابنها الخليفة القاصر المستنصر بالله الخلافة في النصف من شهر شعبان من السنة نفسها، تولت أمه الوصاية عليه. ويبدو لنا أن الجواري في المجتمع الفاطمي كن يصلن إلى أعلى المراتب في السلم الاجتماعي بزواجهن من الخلفاء، فيصبحن زوجات خلفاء وأمهات خلفاء ويتسلطن على أمور الدولة من هذا الطريق [٤].

---

[١] أبو سعد التستري، وهو أبو سعيد بن إبراهيم التستري، من رجال الدولة الفاطمية البارزين، تولّى الإشراف على بيت المال، ثم ارتقى إلى منصب الوزارة في عهد الخليفة الفاطمي، وكان له دور مهم في الإدارة المالية للدولة، إلا أنّه تعرّض للسقوط السياسي فقبض عليه وقُتل سنة ٤٣٩هـ.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، جـ٢، ص ٩١.

[٢] ابن خلكان، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص ١٤٥.

[٣] ياقوت الحموي، المصدر السابق ،١٩١

[٤] البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩ هـ)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٩٩١، ص٢٣٨.

كان للسيدة رصد قصرها الخاص بها، إذ كانت تقيم آنذاك في (قصر اللؤلؤة) الذي بناه الخليفة الظاهر، والذي يعد من أحسن متنزهات القاهرة إذ امتاز بحسن الموقع فالجالس فيه يتمتع بالمناظر الخلابة المتمثلة بكثرة الحدائق ومياه النيل الزرقاء التي تعكس لون السماء، فامتلكت عشاري خاص محلى بالفضة غرف بالفضة لتنزه فيه اهداها لها أبو سعد التستري ولقد قدرت الفضة التي استعملت فيه بمئة ألف وثلاثين ألف درهم، وأما أجرة صناعته فبلغت ألفين وأربعمائة دينار، فضلًا عن إيراداتها المالية الكثيرة الخاصة لها فقد امتلكت أربعة آلاف سرج وآلات فضة فكانت خزائنها تشبه خزائن الخلفاء [١].

وزيادة على ذلك فقد اتخذت هذه السيدة ديواناً خاصاً لإدارة شؤونها ومتعلقاتها إلا أنها حولته إلى مكان تحكم من خلاله الدولة، كما اتخذت لنفسها العلامة للتوقيع على الأوراق الرسمية وهي: (الحمد لله وليّ كل نعمة) وتمتعت بالكثير من الألقاب والامتيازات وهذا يدل على تحكمها بمجريات الأمور، فكان يطلق عليها لقب (مولاتنا) والذي استعمله الخلفاء العباسيون والفاطميون على السواء، وكان الرجال يخاطبونها في حضرة ابنها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بـ مولاتنا. وقد تلقبت بـ (السيدة الملكة)، وكان يشار إليها بـ (الجهة الجليلة) و(الستر الرفيع). لاشك أن امتلاك المال المستقل الذي تتمتع به السيدة رصد في دولة ابنها يضيف لها بعداً جديداً في التصرف بشؤون الحكم واستخدام الأعوان والاتباع من بني جنسها، ففي سنة(٤٤٠/ ١٠٤٨م) أكثرت من شراء العبيد السود حتى صار عددهم في خلافة ابنها المستنصر بحدود خمسين ألفاً، فأصبح هذا العدد فرقة من فرق الجيش الفاطمي وكان هدفها في ذلك أن يسود السود على الترك التي كانت تكن كل الحقد عليهم فأكثرت من شراء العبيد وحرضت ابنها على ذلك . وهناك رواية أخرى تبين ثروة وممتلكات السيدة رصد في خزائن القصر، فيذكر أنه عندما ازدادت سطوة الأتراك وشدتهم على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وكان جملة ما أخذوه من خزائن الخليفة وما أخرج من خزانة السيدة أم المستنصر بالتحديد والذي قدر بأربعة آلاف متل أو دونها صنع بها مثل ذلك، وأخذ منها آلات فضية وزنها ثلاثمائة ألف وأربعون ألف درهم، تساوي ستة دراهم بدينار [٢] .

---

[١] ابن تغري بردي ، المصدر السابق، ص٣٨١.

[٢] المقريزي، المصدر السابق ،ص٤١٣.

المبحث الثاني

الدور السياسي للسيدة رصد

برز دور السيدة رصد، والدة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، في السياسة الداخلية للدولة الفاطمية بشكل تدريجي، ولم يظهر نفوذها الكامل منذ بداية خلافة ابنها؛ إذ كان نفوذها محدوداً في السنوات الأولى بسبب وجود وزير قوي الشخصية والنفوذ هو الجرجرائي[١]، الذي كان يمسك بزمام السلطة السياسية في مصر، ويتولى إدارة شؤون الدولة بقدر كبير من الاستقلال. وخلال مدة وزارته، لم يكن للسيدة رصد نشاط سياسي واضح، إذ انحصرت صلاحياتها ضمن إطار الوصاية الفعلية على الخليفة القاصر.غير أن وفاة الجرجرائي في شهر رمضان سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤م شكّلت نقطة تحوّل مهمة في مسار السياسة الداخلية، حيث أُتيح المجال أمام السيدة رصد لتوسيع نفوذها، فبدأت تتدخل بشكل مباشر في إدارة الدولة، مستندة إلى موقعها بوصفها والدة الخليفة والوصية عليه. وكان أبرز مجالات تدخلها هو شؤون الوزارة، إذ أصبحت طرفاً فاعلًا في تعيين الوزراء وعزلهم، بل وتوجيه قرارات الخليفة تجاههم.

تجلّى هذا الدور بوضوح في تعاملها، ويبدأ نفوذ السيدة رصد يظهر بعد ولاية الوزير أبي علي الحسن بن علي الأنباري[٢] خلفاً للجرجرائي، فقد وقع الخلاف بين هذا الوزير وبين أبي سعيد التستري، فلم تستقم الأمور لابن الأنباري إذ ناصرت السيدة رصد التستري ليد له عليها وذلك أن التستري كان يهودياً وهو الذي باع الجارية السوداء رصد إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فصارت حظيته الأثيرة إلى قلبه، فقدمته في دولة ولدها، وجعلته خصيصاً بها، ورتبته فيما يخصها وعظم شأنه إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة، وكان السبب في عدم استقامة الأمور لابن الأنباري أنه أساء إلى أبي ثمر إبراهيم أخي التستري [٣] .

---

[١] الجرجرائي هو أبو القاسم علي بن احمد أصله جرجرايا من قرية من سواد العراق ، وصل مصر ودخل في خدمة الحاكم بأمر الله وشهد الاضطرابات التي حدثت في عهده (٤٠٣ هـ / ١٠١٢م) ثم قطعت يده في السنة التالية من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله نكاية، ولكنه لم يلبث ان اسند اليه ديوان النفقات ولقب بنجيب الدولة . ينظر : ابن برد ابي الحسن احمد بن عبد الرحمن (ت ٣٥٥ هـ)، ذيل كتاب الولاة والقضاة ، ١٩١٢، ص٤٩٧.

[٢] أبي علي الحسن بن علي الأنباري هو أبو علي الحسن ابن علي الانباري كان نائب المؤيد في الدين هبة الله بن موسى واصطنعه وجعله نائباً عنه في بلاد الشام وكان حسن الخط تولى الوزارة سنة (٤٣٦/ ١٠٤٤) واقام بها اياماً ثم صرف عنها قتل سنة ٤٣٨ . ينظر : المقريزي ، المصدر السابق ، ص.٢٤

[٣] سيد أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية فى مصر ، بيروت ، الدار المصرية اللبنانية – ط١، ١٩٩٢، ص١٣٥.

وبعد عزل ابن الأنبارى وقتله سنة (٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م) وتولى أبي منصور الفلاحي[١] الوزارة، انبسطت كلمة أبي سعيد في الدولة بحيث لم يبق للفلاحي معه في الوزارة أمر ولا نهي سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ لا غير، وأبو سعيد تولى ديوان أم الخليفة المستنصر، فحقد الفلاحي على أبي سعيد، وشغب الجند عليه حتى قتلوه، وذلك أن بني قرة عرب البحيرة أفسدوا في الأعمال، فخرج إليهم الخادم عزيز الدولة ريحان وأوقع بهم وقتل منهم، وعاد وقد عظم بنفسه بالنصر على بني قرة والظفر بهم، فتقل على أبي سعيد أمره، واستمال المغاربة وزاد واجباتهم ونقص من أرزاق الأتراك ومن ينضاف إليهم، فجرى بين الطائفتين حرب بباب زويلة واتفق مرض ريحان وموته فاتهم أبا سعيد أنه سمه وتجمعت الطوائف المنحرفة عنه على قتله، فركب من داره يريد القصر في يوم الأحد من جمادي الأولى سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م في موكب عظيم، فلما قرب من القصر اعترضه ثلاث من الأتراك وضربوه حتى مات، وقطع الأتراك أبا سعيد قطعاً، وتناولت الأيدي أعضاءه فتمزقت، واشترى أهله ما قدروا على تحصيله من جثته بمال. وجمع الأتراك ما قدروا عليه من أعضائه ورمّته، وحرقوا ذلك بالنار، وألقوا عليه من التراب ما صار به تلا مرتفعاً وضم أهله ما وصل إليهم منه في تابوت وأسدلوا عليه ستراً، وتركوه في بيت مؤزَّر بالستور، وأوقدوا الشموع وأقاموا عزاءه، فتعلقت من بعض الشموع شرارة في الستور التي هناك ومضت فيها فاحترق التابوت بما فيه[٢]. ولكن الخليفة المستنصر لم يرض عن هذا العمل، كما لم ترض عنه أمه التي كانت قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمة في بيت التستري فرد المستنصر لأبي نصر أخي أبي سعيد التستري خزانة الخاص، ولولدي أبي سعيد النظر في بعض الدواوين، ولم يكف ذلك السيدة رصد وصممت على الانتقام من الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي، فحقدت عليه بسبب قتله أبي سعيد، فتمكنت من عزله عن الوزارة، والقبض عليه وإيداعه سجيناً في خزانة البنود، ثم صدر الأمر بقتله فقتل ودفن في خزانة البنود سنة٤٤٠ هـ ومع أن السيدة رصد كلفت أبا نصر أخا أبي سعيد بأن يحل محل أبي سعيد لديها، فإنه فضل ألا يقوم

---

[١] أبو منصور الفلاحي أبو منصور صدقة بن يوسف بن علي الفلاحي كان يهودياً وهداه الله الى الإسلام وكان موصوفاً بالبراعة في صروف الكتابة ، وكان ناظراً على الشام ، ولقب بالوزير الاجل فخر الملوك قبض عليه وقتل سنة ٤٤٠ ، ينظر : ابن ظافر جمال الدين علي (ت٦١٣ هـ) ، اخبار الدول المنقطعة ، تعقيب اندريه فريه ، القاهرة ، ١٩٧٢ص٧٨.

[٢] المناوي، محمد حمدي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى ، مصر ، دار العارف ، ١٩٧٠، ص١٥٥.

بذلك خشية من الوزير الجديد أبي البركات أبي حسين [١] عماد الدولة بن محمد أحمد الجرجرائي، وكذلك خوفاً من الأتراك وبذلك أتيحت الفرصة لأبي محمد اليازوري[٢] أن يتولى ذلك بمساعدة عدة الدولة رفق أحد القواد. واليازوري كان أبوه من أهل يازور قرية من عمل الرملة بفلسطين، وكان من ذوي اليسار فانتقل إلى الرملة واشتهر فيها، وولي ولده هذا الحكم بها بعد وفاة أخيه، فإنه كان يتولى ذلك، وتعلق بخدمة السيدة والدة الإمام المستنصر، وأضيف لأبى محمد الحسن اليازوري الوزارة فصار إليه الحكم بديار مصر والوزارة والنظر في ديوان أم المستنصر، ولقد كان كلاً من التستري واليازوري لهما تطلعات استطاعا أن يحققاها من خلال أم المستنصر، ولذلك لم يحاولا الحد من تدخلها في شؤون الحكم لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لوصول كل منهما إلى غايته، ولكنهما سيطرا عليها بطريق غير مباشر[٣].

وعلت مكانة أبي محمد اليازوري، وصدرت إليه أوامر السيدة بألا يقوم لأحد إذا دخل عليه مهما علا قدره، فنفذ اليازوري ذلك وامتثل أمرها فيما خلا إذا التقى بالقائد عدة الدولة رفع يده اليه، ولم يرض ذلك السيدة عندما بلغها، وقالت له لا تتحرك لأحد بالجملة ولقب " بالمكين عمدة أمير المؤمنين" وصار يحضر مجالس الخليفة المستنصر مع الوزير أبي البركات وتستشيره في الأمور، ويتكلم نيابة عن الخليفة فيما يسأل الوزير عنه، والخليفة يقول" هذا هو الصواب " ورسول السيدة من وراء الستار يخرج ويقول" هو الصواب فكان الوزير وكأنه يعرض الأمر على اليازوري لا على الخليفة، فشق ذلك عليه، ولكن لم يكن بوسعه المخالفة مع أنه لا يستطيع الصبر على ما به. ونتيجة لزيادة نفوذ اليازوري الذي هو مستمد من نفوذ السيدة رصد أخذ الوزير يدبر عليه ويكيد له في محاولة لإبعاده عنها، وأشار عليه بعض خلصائه أن يحسن للخليفة المستنصر بالله أن يقلده منصب القضاء إذ في ذلك المنصب ما يشغله عن ملازمة السيدة، وبذلك تصبح أمام الوزير فرصة لدى الخليفة المستنصر بالله لحمله

---

[١] أبي البركات أبي حسين وهو أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن احمد الجرجرائي ابن اخي الوزير الجرجرائي تولى الوزارة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي للفترة من أواخر سنة ٤٣٩ هـ الى بداية سنة ٤٤٠ هـ ولقب بالكثير من الألقاب التي منحها له الخليفة وكانت مدة وزارته سنة وتسعة اشهر ، ينظر : السيوطي ، عبد الرحمن بن ابي بكر (ت٩١١ هـ) ، حسن المحاضرة في اخبار مصر القاهرة ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٨،ج٢، ص٢٠١.

[٢] اليازوري لأبي محمد هو الحسن بن علي بن عبد الرحمن ابي محمد اليازوري ، وزير من الدهاة ولد في يازور من قرى الرملة احدى قرى فلسطين ، ونسب اليها الرملة ، وولى فيها واتصل بالخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٤٢ ، ينظر : ابن الصيرفي ، المصدر السابق، ص٤٠.

[٣] المقريزي ، المصدر السابق، ص٥١.

على استخدام ولده مكان اليازوري لدى والدته السيدة رصد ، فيقوى جانب الوزير بذلك ويملك نتيجة ذلك الجهتين معا ' جهة الخليفة والسيدة[١].

وكانت حالة القضاء أنذاك فيها شيء من التعطيل وسوء السمعة، ووجدها الوزير فرصة لدى الخليفة ليكلمه في أن يلي القضاء رجل ثقة معروف بالأمانة، وهل هناك من هو أجدر بهذه الصفات من أبي محمد اليازوري، ولما أجابه الخليفة بأن اليازوري فى خدمة مولاتنا الوالدة، ولا يفسح له في ذلك احتال الوزير للأمر وقال "يا أمير المؤمنين هي – خلد الله ملكها – أغير على دولتك وأحسن نظراً لها من أن تحول بينها وبين ما يجملها، ومع ذلك فلم ينقل مما هو فيه إلى ما هو دونه ". ووجدت تلك الإجابة المقنعة طريقها إلى عقل المستنصر، فأجاب الوزير إلى مطلبه، وكتب لليازوري السجل بذلك، وكان عدة الدولة رفق عيداً لليازوري يبلغه بكل ما يجد، فأرسل إليه يخبره في حينه بما يجرى بين الخليفة والوزير وما استقر عليه الرأي، وقال له ينصحه تلطف في أمرك كما تريد وكما كان منصب القضاء عظيماً ومع ذلك كان اليازوري فيه من الزاهدين لاسيما وهو يعلم أنه تولا نتيجة تدبير عليه الهدف منه إبعاده عن خدمه السيدة[٢]. قد أغم ذلك الأمير اليازوري كثيراً وكان مريضاً في ذلك الوقت فتحامل على نفسه، وخرج وهو محموم إلى قصر السيدة في وقت متأخر، وجرى الحديث بينه وبين السيدة في هذا الشأن، وأعلمها بأن تلك خطة تهدف إلى إبعاده عن خدمتها حتى يتمكن منه أعداؤه وما كان مثل ذلك ليغيب عن فطنة السيدة رصد، ولكنها رأت أن تعالج الأمر بحكمة فلا تلغي قرار ابنها المستنصر الذي أصدره وهو موقن بأن أمه كما قال الوزير له ' أغير على دولته وأحسن نظراً لها من أن تحول بينها وبين ما يجملها"، ورأت أن ثمة فائدة ترجى لإصلاح حال القضاء بنزول اليازوري الثقة إلى ساحته، فحددت له يومين فقط في الأسبوع ليفصل في الأحكام، وفي هذين اليومين اللذين يغيب فيها عن خدمتها ينوب عنه في ذلك ولداه، وكان قرار السيدة ذكياً أرضى اليازوري فقبل الأرض بين يدي السيدة وانصرف شاكراً، فإنها إذا قالت قولاً وفت به وثبتت عليه فإنها كانت وثيقة العقد، حافظة للعهد، غير ناقضة له، ولا متغيرة عنه مع من تطلع من أمره على ما يقتضى التغيير

---

[١] محمود، منى حسن احمد ، محمود ، حسن احمد، مصر الإسلامية من الفتح الغربي حتى نهاية الدولة الفاطمية ، القاهرة، دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٩٠-١٩٩١م، ص ١٨٤.

[٢] ابن ميسر محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧هـ)، اخبار مصر، ص٤٥.

عليه، فكيف بمن ترتضى طريقته وتحمد خلائقه، وهكذا وبحكمة السيدة رصد لم يتمكن أعداء أبي محمد اليازوري الذين ضاقوا به النيل منه، بل أنهم ضموا بالقضاء سلطاناً إلى سلطانه وأضافوا به مهابة إلى مهابته، وتقلد اليازوري القضاء وقرئ سجله في الديوان وخرج والدولة بأسرها بين يديه، وقد اليازوري ابنه الأكبر أبا الحسن محمداً، ولقب بالقاضي الأجل خطير الملك وأقام ابنه الآخر في جهات السيدة [١]. وعلى الرغم من علم السيدة بحيلة الوزير إلا أنها دبرت الأمر لليازوري، وذلك رغبة منها في أن يحتفظ اليازوري بوظيفة رئيس ديوانها إلى جانب القضاء، حتى تمهد له الطريق للوزارة، فسعت في عزل الوزير أبي البركات الحسين بن علي بن عماد الدولة الجرجراني من الوزارة، وقبضت عليه ونفته إلى الشام وبذلك تهيأت الظروف لأن يتولى اليازوري الوزارة ولكن بطريق غير مباشر [٢]

وقد عينت أم المستنصر أبا الفضل مسعود واسطة لا وزيراً وذلك في عام ٤٤١هـ / ١٠٤٩م، ثم سرعان ما عزلته وبذلك أصبح من السهل أن يتولى اليازوري الوزارة، وعلى الرغم من رغبته في الوزارة إلا أنه أظهر في أول الأمر عدم موافقته، ولم يوافق على قبولها إلا بعد تشجيع قائد الجيش ناصر الدولة بن حمدان له، وهكذا صار له الوزارة وقضاء القضاة والدعوة، هذا فضلاً عن احتفاظه بوظيفة رئيس ديوان أم المستنصر. وهكذا باتصال اليازوري بالسيدة رصد والفوز بثقتها، وثقة الخليفة بلغ اليازوري في خلاقة المستنصر منزلة لم يبلغها غيره، وقد أثبت كفاءته في الداخل والخارج وفي الحرب والسلم على حد سواء عندما نقل إلى القاهرة فأعجبت به، وعينته مديراً لأعمالها، ولكن حساده الذين كثروا نتيجة لعلوا منزلته تمكنوا من الكيد له في النهاية لدى الخليفة المستنصر بالله وكان حاسدوه على قول المقريزي "استطالوا مدته فابتغوا له الغوائل، ونصبوا له الحبائل، وأفلحت مكائدهم فقبض عليه وصودرت أمواله وتولى الوزارة من بعده إنسان كان قريباً منه هو أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي الذي أتهم اليازوري أمام الخليفة بعدة تهم من أهمها اتصاله بأعداء الخلاقة الفاطمية في العراق، ثم جمعه للثروات الهائلة من خلال وظائفه، مع أن اليازوري كان سبباً في تعيين البابلي هذا في دواوين الخليفة، كان البابلي سبباً في صرف اليازوري عن الوزارة واعتقاله بالقاهرة، ونفيه إلى تنيس ومعه نساؤه وأولاده وحاشيته، [٣] وهذا يبين مدى التصارع الدائم من أجل منصب الوزارة في

---

[١] الشيرازي المؤيد في الدين هبة الله بن داود (ت٤٧٠ هـ)، السيرة المؤيدية، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة، ١٩٤٩، ص٨١.

[٢] المقريزي، المصدر السابق،ج١, ص٥٦ –٥٧.

[٣] أبو البركات محمد بن احمد (ت٩٣٠ هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، مصر، ١٣١١ هـ، ص٤٦.

ذلك الوقت وسار البايلي في طريق غدره باليازوري إلى النهاية فأخذ يدبر لقتله، حتى تم له ذلك رغم عدم صدور أوامر الخليفة بذلك، فقد استنكرت السيدة رصد ما أشيع من أن الخليفة أمر بقتله وكلمت الخليفة في ذلك، فأرسل الخليفة يأمر البابلي بألا يفعل ذلك، غير أن البابلي الذي كان قد أرسل رسوله ليأمره بقتل اليازوري ضيع الوقت بعد وصول أمر الخليفة إليه ليتسع الوقت لتنفيذ الجريمة[١].

في ليلة الثاني والعشرين تم قتل اليازوري من صفر سنة(٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، على أن ابن ميسر يذكر أن الخليفة هو الذي أصدر الأمر بقتله فما كان المستنصر ليصدر في مثل هذا الأمر عن نفسه دون الرجوع إلى أمه مهما كانت الأسباب. ولعل التساؤل الذي قد يرد هنا هو كيف تأخرت السيدة رصد في العمل على إنقاذ اليازوري حتى تم التدبير عليه، وأغلب الظن أنها تركت للمستنصر نفسه أن يكتشف قيمة اليازوري وفضله على غيره وكذب ما أشاعه عنه أعداؤه، تركت له الأمر إلى حين ليكتشفه بنفسه ولكنها عندما علمت أن البابلي سير إليه من يقتله كلمت المستنصر في ذلك ليتدارك الأمر قبل الفوات، غير أن البابلي أفلح في تضييع الوقت حتى قتل اليازوري [٢].

ولقد حدث لليازوري مثلما حدث للتستري من قبل، وكأن من تعلق بخدمة أم المستنصر كان لزاماً عليه أن يلقى ذات المصير البشع، ولعل ذلك راجع لكثرة حساده لأنه قريب من أهم سيدة في مصر وصاحبة الأمر والنهي فيها، أو أن من يعمل بخدمتها يدرك أنه من السهل أن يقدم على أشياء ضد مصالح البلاد ويثري على حسابها وهو مطمئن إلى أنه يستند إلى خدمة امرأة قد سلبت ابنها كل مظاهر الحكم، وأخذت تحرك الأحداث بدون وعي كما أنها تحرك الوظائف ومعها الرجال، وكان لموت اليازوري أثر كبير بالنسبة لأم المستنصر التي لم تجد من يدير شؤونها. وعندما أسندت الوزارة للبابلي لم يكن في الدولة من يتقدمه، ولما ولي الوزارة بان للناس من رقاعته وحدثه وكثرة شره ما افتضح به وتجرد لمقابلة إحسان اليازوري بكل قبيح وذكره بما لا يستحق من الغض، فسقط قدره من أعين الكافة وحذره كل أحد 'وصرف البابلي عن الوزارة بعد اثنتين وسبعين يوماً من وزارته وقبض

---

[١] ابن الحبال، ابو إسحاق إبراهيم بن سعيد(ت٤٨٢هـ) ، وفيات قوم من المصريين ونفر سواهم، ت :إبراهيم صالح ،ط١، دمشق، ١٩٩٥، ص١٣٥.

[٢] قزاوغلي، يوسف الدين (ت ٦٥٤) ، مراة الزمان في تاريخ الاعيان ٣٤٥ –٤٤٧، ت: جنان الهموندي ، بغداد، ١٩٩٠، ص٣٨٩.

عليه واعتقل. وتبعه سلسلة من الوزراء وكان الوزير يمكث في الوزارة أشهر أو أياماً كما كان الوزير يعزل من منصبه ثم يعود إليه عدة مرات، واستوزر المستنصر بعده أبا الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين بن المغربى[١] الذي كان على اتصال باليازوري الذي ولاء ديوان الجيش، وكانت أم المستنصر توليه عناية خاصة، ولما صارت الوزارة إلى البابلي قبض عليه في جملة من قبض عليهم من أصحاب اليازوري، وظل معتقلاً حتى تقررت له الوزارة وهو في المعتقل، وذلك بعد عزل البابلي [٢].

أما القضاء فلم يسلم هو الآخر من تدخل أم المستنصر، وسارت على ذات سياستها تجاه الوزارة، في أن تولى القاضي القضاء عدة مرات، وكانت توليتهم القضاء وعزلهم أمراً مالوفاً، وكان القاضي أحياناً يعود إلى وظيفته مرة أخرى بعد أن يتوسط نساؤه لدى أم المستنصر، أو بتدخل بعض وجوه نساء القصر اللاتي يتشفعن له عندها أيضاً، وأصبح القاضي لا يهتم بمنصبه فكان يحضر نائباً عنه والنائب هو الآخر يأتي عنه نائب، وكذلك الدعوة لم تكن أحسن حظا من الوزارة والقضاء فكان أعوان أم المستنصر يمنعون الدعاة من مقابلة الخليفة، وكانت وظيفة داعي الدعاة تعطى لمن لا يستحق، وأحياناً كانت تجمع الوزارة والقضاء والدعوة في يد رجل واحد وهذا أقل دليل على عدم الاهتمام بتلك الوظائف العليا[٣].

كما أدى تغير الولاة في الأقاليم التابعة للدولة نتيجة تدخل أم المستنصر وأعوانها إلى تفكك إمبراطورية الفاطميين وتقوقعها في مصر، ومع ذلك فلقد شاركت أم المستنصر في عقد حلف مع ميخائيل الرابع عام(٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م) ، الذي كان يسعى هو الآخر إلى عقد مصالحة في مصر لإعادة بناء كنيسة القيامة، كما تشير السجلات المستنصرية إلى أن أم المستنصر راسلت السيدة أروى ملكة اليمن ومما يستدعى الانتباه أن مشاركة أم المستنصر في السياسة الخارجية قد جاءت قبل وبعد تلك الفترة التي سيطرت فيها على شؤون الحكم بصورة فعلية وهذا يجعلنا نظن أن نشاطها

---

[١] أبا الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين بن المغربى هو وزير فاطمي من أسرة أدبية عريقة، تولى الوزارة للخليفة المستنصر بالله عام ٤٥٠ هـ في فترة اضطرابات سياسية حادة، وعُرف بكفاءته الإدارية وسعيه لإصلاح موارد الدولة قبل تفاقم الأزمات الاقتصادية في مصر .ينظر: المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٤.

[٢] المقريزي، المصدر نفسه، ص٨٦-٨٧.

[٣] ابن ميسر، المصدر السابق، ص١١.

قد استمر بعد عام(٤٦٢هـ/١٠٧٠م)إذ أن هذا السجل يرجع إلى عام ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م، وإن كان هذا النشاط السياسي بسيطاً فكانت متغلبة على دولة المستنصر تصطنع الوزراء وتوليهم، وكانوا يتخذون الموالي من الأتراك للتغلب على الدولة، فمن استوحشت منه أغرت به المستنصر فقتله [١].

على الرغم من انشغال السيدة رصد بقضايا السياسة الداخلية، فإن لها حضوراً ملحوظاً في بعض جوانب السياسة الخارجية للدولة الفاطمية، ولا سيما في السنوات الأولى من خلافة المستنصر بالله، حيث اتسمت العلاقات الخارجية بدرجة من الاستقرار النسبي مقارنة بالوضع الداخلي المضطرب.فقد شهدت تلك المرحلة تحسناً في العلاقات الفاطمية–البيزنطية، إذ عُقدت هدنات بين الطرفين تضمنت تبادل المصالح، ومن أبرزها السماح بإصلاح كنيسة القيامة في بيت المقدس مقابل إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين. وتشير بعض المصادر إلى أن هذه التفاهمات لم تكن بعيدة عن تأثير السيدة رصد، إذ أُرسلت إليها هدايا من الإمبراطور البيزنطي، وهو ما يدل على الاعتراف بمكانتها داخل البلاط الفاطمي ودورها في توجيه السياسة العامة.[٢]

كما يظهر دورها في العلاقات مع اليمن، حيث وردت مراسلات رسمية باسمها إلى ملكة اليمن أروى الصليحية، وهو ما يعكس استمرار تقاليد الاتصال الدبلوماسي الفاطمي، ويشير إلى أن والدة المستنصر كانت تشارك، ولو بصورة غير مباشرة، في توجيه العلاقات الخارجية، خاصة مع المناطق التي ترتبط بالخلافة بروابط مذهبية وسياسية [٣] .

وفي إطار هذه السياسة، كانت للسيدة رصد علاقات طيبة مع أشراف الحجاز، حيث حرصت على إرسال الأموال والأعطيات، ولا سيما في مواسم الحج، في محاولة للحفاظ على مكانة الدولة الفاطمية الدينية والسياسية في الحجاز. ويعكس هذا التوجه إدراكها لأهمية الرمزية الدينية في تثبيت شرعية الخلافة، حتى في ظل الأزمات الداخلية[٤].

---

[١] المناوي، المصدر السابق، ص ٢٥٨.

[٢] ابن الاثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ج٨، ص ١٣٥.

[٣] اليافعي، المصدر السابق، ص ١٤٥.

[٤] دياب ، صابر محمد ، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي ،ط١، القاهرة ،١٩٧٣،ص٢٢٤.

وبصورة عامة، يمكن القول إن السياسة الخارجية في عهد السيدة رصد اتسمت بمحاولة الحفاظ على التوازن والاستقرار، وعدم فتح جبهات صراع خارجية جديدة، وهو ما يفسر استمرار الهدنات والعلاقات الدبلوماسية، في وقت كانت فيه الدولة تعاني من اضطرابات داخلية حادة. ويبدو أن هذا النهج كان يهدف إلى حماية كيان الدولة الفاطمية ومنع انهيارها الكامل، حتى وإن لم ينجح في معالجة جذور الأزمات الداخلية.

المبحث الثالث

الدور الإداري للسيدة رصد

برزت في تاريخ الدول الإسلامية شخصيات نسائية لعبت أدواراً سياسية وإدارية مهمة داخل البلاط الحاكم، خصوصاً في الفترات التي كان فيها الخلفاء صغار السن أو ضعيفي التأثير. ومن أبرز هذه الشخصيات السيدة رصد التي ارتبط اسمها بتاريخ الدولة الفاطمية في مصر في القرن الخامس الهجري. وإذا كان الدور السياسي للسيدة رصد في قد كشف عن قدرتها العالية في إدارة الأزمات الخارجية والتأثير في موازين القوى وصناعة القرار السياسي للدولة، فإن هذا النفوذ لم يكن ليتحقق لولا قاعدتها الصلبة ومكانتها الراسخة داخل الهيكل التنظيمي للبلاط الحاكم. فالتشابك الوثيق بين ما هو سياسي وما هو إداري يفرض علينا الانتقال من قضاء الدولة العام إلى القضاء الداخلي للقصر؛ لبيان الكيفية التي أدارت بها السيدة رصد شؤون البلاط، وكيف استثمرت حظوتها ومكانتها الاعتبارية في صياغة تراتبية إدارية مكنتها من الإمساك بزمام الأمور المالية والخدمية، وهو ما سيتم تناوله بالتفصيل في المبحث الثالث الذي يستعرض الدور الإداري للسيدة رصد ومكانتها المرموقة داخل القصر.[١]

برزت شخصية رصد داخل البلاط الفاطمي بوصفها إحدى الشخصيات النسائية التي مارست دوراً إدارياً مهماً في تنظيم شؤون القصر الفاطمي خلال القرن الخامس الهجري. وقد ظهر هذا الدور بصورة واضحة منذ السنوات الأخيرة من حكم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، ثم اتسع نطاقه بعد تولي ابنها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الحكم وهو في سن صغيرة، الأمر الذي جعل إدارة البلاط الفاطمي تعتمد بدرجة كبيرة على التنظيم الداخلي للقصر وعلى الشخصيات القريبة من مؤسسة الخلافة [٢].

كان القصر الفاطمي في القاهرة في فترة المستنصر بالله مؤسسة سياسية وإدارية معقدة، ولم يكن مجرد مقر إقامة للخليفة. فقد كان القصر مركزاً للنشاط الإداري الذي تدور حوله شؤون الحكم، حيث كانت تصدر منه الأوامر وتنظم من خلاله الموارد والإمدادات التي يحتاج إليها البلاط والدولة. وقد

---

[١] المناوي ، المصدر السابق، ص٢٦٠.

[٢] المناوي, المصدر نفسه, ص٢٦٠.

وصف المؤرخ تقي الدين المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين طبيعة الحياة داخل القصور الفاطمية، مشيراً إلى أن القصر كان يضم عدداً كبيراً من الدواوين والمرافق والخدم والموظفين الذين كانوا يشكلون جهازاً إدارياً واسعاً يتولى تنظيم الحياة اليومية للبلاط[١].

في هذا السياق ظهرت أهمية الدور الإداري الذي مارسته داخل القصر، إذ كانت تشرف على تنظيم شؤون الحياة الداخلية في البلاط، وهي مسؤولية كانت تتطلب إدارة دقيقة نظراً لاتساع حجم القصر وكثرة العاملين فيه. فقد كان القصر يضم مرافق متعددة مثل المخازن والمطابخ وأماكن الضيافة ومرافق الإقامة، إضافة إلى أقسام أخرى مرتبطة بتوفير المؤن والمواد التي يحتاج إليها البلاط. وكان الحفاظ على انتظام العمل في هذه المرافق أمراً ضرورياً لاستقرار الحياة داخل القصر، لذلك كان الإشراف الإداري عليها يتطلب متابعة مستمرة وتنظيماً دقيقا[٢].

خلال عهد الظاهر لإعزاز دين الله كان هذا الدور يتركز بصورة رئيسية في تنظيم الموارد والمرافق المرتبطة بالبلاط، إذ كانت القصور الفاطمية تمتلك مخازن كبيرة تحتوي على المواد الغذائية والأدوات التي تُستخدم لتلبية احتياجات القصر. وقد كان الإشراف على هذه المخازن جزءاً من التنظيم الإداري الذي يضمن استمرار الإمدادات إلى البلاط بصورة منتظمة. وتشير المصادر التاريخية إلى أن القصر الفاطمي كان يعتمد على نظام إداري منظم لإدارة الموارد، وكان هذا النظام يشمل متابعة المخازن وتوزيع المؤن على المرافق المختلفة داخل القصر[٣].

ومع انتقال الحكم إلى المستنصر بالله اتسعت أهمية الإدارة الداخلية للقصر، وذلك لأن الخليفة الجديد كان صغير السن عندما تولى الحكم، مما جعل مؤسسة القصر تلعب دوراً أكبر في الحفاظ على استقرار النظام الإداري للدولة. في هذه المرحلة أصبح تنظيم شؤون البلاط مسألة أكثر أهمية، إذ كان القصر يمثل المركز الذي تُدار من خلاله كثير من جوانب الحياة السياسية والإدارية للدولة الفاطمية [٤].

---

[١] المقريزي ، المصدر السابق ،ص٢٣٥.

[٢] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م،ج٥،ص ١١٠.

[٣] ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٤٢١.

[٤] المصدر نفسه، ص ٤٢١ .

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن الإدارة الداخلية للقصر كانت تعتمد على تنظيم الموارد والمرافق المرتبطة بالخلافة، وهو ما جعل الإشراف على هذه الجوانب جزءاً من عملية الحفاظ على استقرار الحكم. وقد ساهمت في هذا الإطار في متابعة العمل داخل مرافق القصر وتنظيم العلاقة بين الأقسام المختلفة التي كانت تقدم الخدمات للبلاط. وكان هذا الدور يتطلب درجة عالية من التنظيم الإداري، لأن القصر الفاطمي كان مؤسسة كبيرة تضم أعداداً كبيرة من العاملين[١].

تعد دراسة "الشدة المستنصرية" في التاريخ الفاطمي مدخلاً حيوياً لفهم كيفية تقاطع الكوارث الطبيعية مع الانهيارات السياسية، إذ إن البحث في جزئيات هذا العصر يتجاوز السرد التقليدي ليصل إلى تحليل الأوبئة التي عرفتها مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله. لقد تشكلت هذه الأزمة من محطات قاسية أثقلت خزائن الدولة، وخلفت وراءها فوضى اجتماعية عارمة وتمرداً في القيادات وبين صفوف الجند. ويرتبط هذا التردي ارتباطاً عضوياً بمستوى منسوب نهر النيل؛ فبينما كان ارتفاعه رمزاً للرخاء، أدى انحساره وتذبذبه إلى كوارث بيئية تسببت في انتشار أوبئة فتاكة كالجدري والطاعون، مما رفع معدلات الوفيات إلى مستويات غير مسبوقة[٢].

بدأت ملامح الانهيار بما يُعرف بـ "الموجة الأولى" أو المجاعة الأولى، والتي امتدت ما بين عامي ٤٤٤ و٤٥٤هـ (١٠٥٢ – ١٠٦٢م). وشهدت هذه العشرية بوادر القحط وانتشاراً واسعاً لمرض الجدري الذي حصد مئات الأرواح يومياً، حتى بلغت الوفيات في ذروتها عامي ٤٤٧ و٤٤٨هـ نحو ألف شخص في اليوم الواحد. إلا أن الكارثة بلغت قمتها في "الموجة الثانية"، وهي التي خلدتها المصادر باسم "الشدة العظمى" أو الشدة المستنصرية، حيث أعقب المجاعة طاعون قاتل استمر لسنوات طوال (٤٥٧ – ٤٦٤هـ)[٣].

لقد أدت هذه الأزمات إلى انهيار مجتمعي وبيئي شامل؛ فتسبب البؤس في تشرد الأهالي، وأفنى الطاعون نحو ثلث سكان مصر وفق تقديرات المؤرخ ابن إياس الحنفي. ولم يقتصر الأمر على نقص الغذاء، بل امتد للبيئة حيث تلوثت مياه النيل جراء إلقاء جثث الموتى فيه، مما خلق دوامة من

---

[١] حسن، إبراهيم حسن ،الحياة السياسية في العصر العباسي، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م، ص ٢٠١ .

[٢] محمد الناصر صديقي، الشدة المستنصرية: مثال عن الأوبئة في مصر الفاطمية، جامعة جندوبة، ص ٣.

[٣] المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٢٣؛ صديقي، المرجع السابق، ص ٣.

الأمراض المستعصية التي عمقت من جراح الدولة. وفي ظل هذا الوهن، عجز الخليفة عن السيطرة، وفقد جهاز الخلافة هيبته أمام تمرد العسكر وتفكك مفاصل الإدارة السياسية[١].

وفي قلب هذا المشهد المتأزم، برز الدور السياسي للسيدة "رصد" (والدة الخليفة)، التي لعبت دوراً محورياً في تأجيج الصراعات السياسية وتداخلها مع الأزمات الاقتصادية. فقد تدخلت السيدة رصد بشكل مباشر في إدارة الأزمة عبر تعيين وعزل الوزراء، مما خلق حالة من عدم الاستقرار الإداري حالت دون الوصول إلى حلول ناجعة تخفف من وطأة المجاعة، وزادت من حدة الصراع بين طوائف الجيش (الأتراك والسودان)[٢].

وأخيراً، وأمام فشل الحلول المحلية وتفاقم الوضع، لم يجد المستنصر بداً من الاستعانة بالقوى العسكرية الخارجية، فاستدعى القائد "بدر الجمالي" ذو الأصول الأرمنية في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م). وبوصول الجمالي وتوليه مقاليد الأمور لإيجاد حلول عاجلة، طُويت صفحة من الاضطراب لتبدأ حقبة جديدة في التاريخ الفاطمي عُرفت بعصر "وزراء السيوف"، حيث انتقلت السلطة الفعلية إلى يد القادة العسكريين بعيداً عن نفوذ القصر وتدخلات الحريم[٣].

وقد ازدادت أهمية هذا الدور خلال الأزمات الاقتصادية التي شهدتها مصر في عهد المستنصر بالله.

تعرضت البلاد في تلك الفترة لأزمة اقتصادية حادة نتيجة انخفاض فيضان نهر النيل لعدة سنوات متتالية، وهو ما أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعي وارتفاع أسعار المواد الغذائية. وقد عرفت هذه الأزمة في المصادر التاريخية باسم الشدة المستنصرية، وهي من أشد المجاعات التي عرفتها مصر في تاريخها الوسيط.وقد وصف المؤرخ ابن خلدون في كتابه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر آثار هذه الأزمة، حيث أشار إلى أن البلاد شهدت تدهوراً اقتصادياً شديداً أدى إلى انتشار المجاعة والفقر بين السكان. كما تذكر المصادر أن الأسعار ارتفعت بشكل كبير وأن كثيراً من الناس عانوا من نقص الغذاء خلال تلك السنوات.في ظل هذه الظروف أصبحت إدارة الموارد المتوافرة داخل القصر مسألة ذات أهمية كبيرة، لأن البلاط الفاطمي كان يمتلك مخازن من المواد الغذائية والمؤن

---

[١] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ص ٦٠؛ صديقي، المرجع السابق، ص ٣

[٢] عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص ٣٧٣.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٢؛ صديقي، المرجع السابق، ص ٣.

التي تُستخدم لتلبية احتياجات القصر. وقد كان تنظيم استخدام هذه الموارد جزءاً من عملية الحفاظ على استمرار الحياة داخل البلاط في فترة كانت تعاني فيها البلاد من نقص شديد في الغذاء[١].

وقد انعكست هذه الأزمة الاقتصادية أيضاً على الحياة الاجتماعية في مصر، حيث أدت المجاعة إلى اضطرابات واسعة في المجتمع وانتشار الفقر بين الناس. وقد ذكر المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أن هذه الفترة شهدت اضطرابات اجتماعية كبيرة نتيجة تدهور الأوضاع المعيشية. وقد أثرت هذه الظروف في المدن والأسواق، حيث تراجعت قدرة الدولة على الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي بشكل كامل.في ظل هذه الأوضاع الصعبة كان من الضروري الحفاظ على انتظام الحياة داخل القصر الفاطمي رغم الاضطرابات التي كانت تعيشها البلاد. ولذلك أصبح التنظيم الإداري لمرافق القصر عاملاً مهماً في الحفاظ على استقرار البلاط، إذ كان القصر يمثل مركز السلطة في الدولة الفاطمية. وقد ساهم الإشراف الإداري على هذه المرافق في ضمان استمرار الخدمات التي يحتاج إليها البلاط، الأمر الذي ساعد على الحفاظ على انتظام الحياة داخل القصر في فترة كانت تعاني فيها البلاد من أزمات اقتصادية واجتماعية عميقة[٢].

مع استمرار هذه الأزمات وبعد انتهاء الشدة بدأت الدولة الفاطمية تواجه صعوبات متزايدة في إدارة شؤونها الداخلية، إذ أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية إلى ضعف الموارد المالية للدولة وتراجع قدرتها على السيطرة على الأوضاع في بعض المناطق. كما انتشرت الأوبئة في بعض الفترات نتيجة المجاعات وسوء الأحوال المعيشية، وهو ما أدى إلى تفاقم الأوضاع الاجتماعية في البلاد. وقد سجل المؤرخ ابن إياس في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور أوصافاً للاضطرابات والأزمات التي شهدتها مصر في فترات من تاريخها، مشيراً إلى أن المجاعات والأوبئة كثيراً ما كانت تؤدي إلى اضطراب الحياة الاجتماعية والاقتصادية [٣].

---

[١] طقوش، محمد سهيل ،تاريخ الدولة العباسية، بيروت ، دار النفائس، ٢٠٠٩م ، ص ١٦٥ .

[١] المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(٣٤٦ هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٥م ، ج٤، ص ٨٩ .

[٣] المقريزي ، المصدر السابق ، ص٢٣٩.

ومع تفاقم هذه الأوضاع تراجع النفوذ الذي كان يمارَس داخل البلاط تدريجياً نتيجة التحولات التي شهدتها الدولة الفاطمية خلال تلك الفترة. فقد أصبحت السلطة الفعلية في بعض المراحل بيد القادة العسكريين والوزراء الذين تولوا إدارة شؤون الدولة في مواجهة الأزمات المتلاحقة. وقد أدى ذلك إلى تغير طبيعة الإدارة داخل القصر الفاطمي مع مرور الزمن [1] .

وهكذا يمكن القول إن الدور الإداري الذي مارسته داخل القصر الفاطمي كان مرتبطاً بمرحلة مهمة من تاريخ الدولة الفاطمية، حيث ساهمت الإدارة الداخلية للبلاط في الحفاظ على انتظام الحياة داخل القصر وتنظيم الموارد والمرافق المرتبطة بالخلافة. وقد ظهر هذا الدور بوضوح خلال عهد الظاهر لإعزاز دين الله ثم اتسع خلال السنوات الأولى من حكم المستنصر بالله، وهي مرحلة شهدت تغيرات كبيرة في الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها مصر.

[1] الطبري، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧م ، ج١٠، ص ٧٥.

الخاتمة

تُعد شخصية السيدة "رصد" نموذجاً جلياً يكشف عن أبعاد حيوية في البنية السياسية والإدارية للدولة الفاطمية، حيث تجاوز حضورها الإطار الاجتماعي التقليدي لتبرز كإحدى القوى الفاعلة والمؤثرة في محيط الحكم. إن موقعها الاستراتيجي داخل البلاط أتاح لها نفوذاً ملموساً في توجيه مجريات الحياة العامة، وهو ما منحها القدرة على المساهمة في إدارة شؤون الدولة وتنظيم القضايا المرتبطة بالبلاط الفاطمي من مركز القوة القريب من السلطة.

إن الدور الذي اضطلعت به السيدة "رصد" يعكس بوضوح طبيعة التوازنات المعقدة داخل القصر، حيث تؤكد الوقائع أن صناعة القرار لم تكن حكراً على الخليفة وحده، بل تشاركت فيها قوى متعددة كانت "رصد" في طليعتها. وبناءً على ذلك، فإن قراءة دورها السياسي والإداري، سواء في التأثير على القرارات السيادية أو تنظيم الشؤون الداخلية للقصر، تمنحنا فهماً أعمق لبنية الحكم الفاطمي والمكانة المتميزة التي استطاعت الشخصيات النسائية انتزاعها داخل المنظومة السياسية لتلك المرحلة التاريخية.

النتائج

١. كانت السيدة رصد من الشخصيات النسائية التي برز تأثيرها في الحياة السياسية داخل الدولة الفاطمية، إذ مكّنها موقعها في البلاط من أن تكون حاضرة ضمن دائرة النفوذ المرتبطة بإدارة شؤون الحكم.

٢. تبين من خلال البحث أن قرب السيدة رصد من مركز السلطة أسهم في تعزيز مكانتها داخل القصر الفاطمي، الأمر الذي أتاح لها دوراً مؤثراً في بعض مجريات الحياة السياسية والإدارية في تلك المرحلة.

٣. أن الدور الذي اضطلعت به السيدة رصد لم يكن مقتصراً على الحضور الاجتماعي داخل القصر، بل امتد ليشمل جوانب سياسية وإدارية ارتبطت بتنظيم شؤون البلاط ومتابعة بعض القضايا المرتبطة بإدارة الدولة.

٤. يعكس نفوذ السيدة رصد طبيعة التكوين السياسي للدولة الفاطمية، حيث لم يكن مركز القرار محصوراً في شخص الخليفة فحسب، بل شاركت في تشكيله مجموعة من القوى والشخصيات المؤثرة داخل القصر.

٥. تشير نتائج البحث إلى أن القصر الفاطمي كان يمثل مركزاً رئيساً لتشكل مراكز النفوذ داخل الدولة، الأمر الذي أتاح المجال لظهور شخصيات لعبت أدواراً غير مباشرة في توجيه بعض السياسات العامة.

٦. تؤكد الدراسة أن تحليل أدوار الشخصيات المؤثرة داخل البلاط يسهم في تقديم فهم أعمق لطبيعة النظام السياسي والإداري للدولة الفاطمية، ولآليات اتخاذ القرار داخل مؤسسة الحكم.

قائمة المصادر

اولاً: المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٣- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مصر، ١٩٦١م.

٤- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، بيروت، ١٩٩١م.

٥- ابن تغري بردي، أبو المحاسن الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م.

٦- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، ١٩٩٢م.

٧- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، فتح الباري، القاهرة، ١٩٦٠م.

٨- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت: دار صادر.

٩- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٠- ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب (ت ٥٤٢هـ)، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٤م.

١١- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م.

١٢- ابن ظافر، جمال الدين علي (ت ٦١٣هـ)، أخبار الدول المنقطعة، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٣- المسعودي، علي بن الحسين, (٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٥م.

١٤- المؤيد في الدين الشيرازي، هبة الله بن داود (ت ٤٧٠هـ)، السيرة المؤيدية، القاهرة، ١٩٤٩م.

١٥- محمد الناصر صديقي، الشدة المستنصرية: مثال عن الأوبئة في مصر الفاطمية، جامعة جندوبة.

١٦- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، بيروت.

١٧-يوسف بن قزاوغلي ت (ت٦٥٤هـ)،مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ،تحقيق:جنان الهموندي،بغداد،١٩٩٠م.

ثانياً: المراجع

١- حسن، حسن إبراهيم، الحياة السياسية في العصر العباسي، بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م.

٢- الدباغ، صابر محمد، سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، ط١، ١٩٧٣م.

٣- سداد، ابن زلاق، الدولة الفاطمية في مصر، بيروت: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٢م.

٤- طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة العباسية، بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٩م.

٥- محمود، منى حسن أحمد، مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الفاطمية، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠-١٩٩١م.